جائحة كورونا وسرّ الشكر الإلهي

مارّيا قباره
ماجستير في اللاهوت الرعائي، طالبة دكتوراه في قسم الاخلاق وعلم الاجتماع، جامعة اريستوتيليس، تسالونيك

تفجّرت أزمة وباء كورونا بكلّ أبعادها السلبيّة والإيجابيّة، وأعادت إلى الواجهة سِجال العلم والدين، أحد السّجالات القديمة الجديدة، وحول مساحة وقدرة كلّ منهما على الإجابة على معضلات الإنسان المعرفيّة والفلسفيّة، والمواجهات بين النظريات العلميّة والنصّوص والممارسات الدينيّة.

في الوقت الذي حرصت فيه الهيئات العلميّة الطبيّة في جميع أنحاء العالم على تقديم تفسيراتها العلميّة لفيروس كورونا لاكتشاف اللقاح آخذة بنشر الوعي الصحيّ والتزام التعليمات والإرشادات الصادرة عنها، ارتفعت أصوات في أوساط دينية تؤكّد على أنّ اجتياح هذا الفيروس العالم ما هو إلاّ رسائل سماوية للإنسان، وعلامة على ما وقع فيه من ظلم وطغيان وامتهان لكرامته، وأخذت تدعوهم إلى التوبة والرجوع إلى طريق الله وأنبيائه. فعاشَ الناس حالة الجدل هذه بشأن طبيعة العلاقة بين الدين والعلم، وأيّهما يجب أن تكون له الكلمة الفاصلة في هذه الأوقات العصيبة التي تواجه البشرية.

وبالرغم من أنّ أزمة كورونا وحدّت رؤساء الكنائس عامّة عِبر اتخاذ قرارات حاسمة لمواجهة الجائحة، فقاموا بإيقاف جميع الصلوات الطقسيّة الجماعيّة داخل الكنائس، إلاّ أنّ هذا لم يثنِ تياراً ظهر في الكنيسة أخذ يفتعل ويجد الفرص لتأليب أتباعه معتمداً على فكرة أنّ الوباء ما هو إلاّ عقاب إلهيّ. وأخذوا يهاجمون قرار الإغلاق بطرحهم الأجوبة العبثية بأنّ الصلاة والطقوس العبادية ستحميهم من التقاط العدوى. وحين أخذ العالم يزداد خوفاً من التجمعات أصرّ أولئك الكهنة على تجاهل مسؤولياتهم الاجتماعية والرعائية، ودعوة المؤمنين لارتياد الكنائس وحضور الطقوس بحجّة أنّها علاج ناجع لأي مرض.

إنّ هذه الطريقة التقليديّة في التنظير اللاهوتيّ في مواجهة الكوارث في العالم سواء في أوروبا أو في دول شرق آسيا، قد سقطت منذ زمن بعيد أمام الأسلوب العلمي الحديث في الفكر واللاهوت؛ الأساس في التعرف على أيّة حالة على أرض الواقع وتحديد مصدرها وحركتها وتأثيرها وبعدها الاجتماعيّ والأخلاقيّ، وبالتالي الانغماس فيها لإيجاد الطرق والأساليب لمعالجتها بحيث لا تتعارض مع العلم وأصوله.

في القرن الرابع عشر عندما ضربَ وباء الموت الأسود أوربا حصدَ ثلث أرواح سكانها، كما حصدَ أرواح الكثير من الكهنة والرهبان نتيجة الصلوات التي كانوا يتلونها على الموتى، وأخذِهم لأدوارٍ وممارساتٍ علاجية خرجت منها الكنيسة منهكة من الوباء. فقامت الثورة البروتستانتية مزيحة التزمت والخرافات والأساطير التي انتهجتها الكنيسة الكاثوليكية في القرون الوسطى.

وهكذا هي الحال اليوم، في أزمة جائحة كورونا، فقد تجاهلت التفسيرات الدينيّة التقليديّة الإشارة إلى أن التفكير الدينيّ البعيد عن العلم كان، أيضاً، أحد الأسباب في نشر الفايروس، كقوله: «بالإيمان بقدرة الله على الحماية والشفاء الجسدي، وأنّ الصلاة والطقوس الكنسيّة ستحمي الناس، من دون شكّ، من التقاط العدوى».

تكرار الأخطاء نفسها منذ قرون، للآن، والتمسّك بحجج غير علميّة في زمن علوم المخابر ليس بخبرة تدعو للتفاخر أو التبني. فهل التقليديّة والنمطيّة في زمن الأزمات والتطوّر والعلم والتغيير قد أوجدت نفعاً؟ هل تكفي الصلاة والطقوس الكنسيّة من تحرير العقول من قيود التقليد والصنمية والكسل الروحي والعقلي؟ وهل تُحتكم إدارة الأزمات إلى أصواتٍ غير مؤهلة لإيجاد الطرق والأساليب المناسبة لتجاوز الأزمات الكنسيّة؟

المجتمع ومصدر المعلومة

غالباً ما تحدُث المواجهة بين العلم والدين بسبب اختلاف مصدر وطبيعة المعرفة والطرق المختلفة بالحكم عليها، مسببّة ارتباكاً والتباساً بين الناس لا ينتهي. فأية معلومة عامّة سياسيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة أو دينيّة لها مصادر مختلفة، كالتلفاز والراديو ومواقع التواصل الاجتماعيّ، وعِبر رجال دولة أو مسؤولين فيها، ورجال دين. بالنسبة لمصدر المعلومة الدينيّة بحسب المؤمن هي الله ورسله والشخصيّات التي تتمتّع بالقداسة، وأيضاً، كلام رجال الدين. فلا حاجة للمؤمنين البسطاء إلى اختبار المصداقية أو طبيعة المصدر، فمصدر المعلومة الدينيّة كفيل بالتصديق دون المراجعة أو التشكيك. على عكس المعلومة العلميّة التي مصدرها التجارب والأبحاث التي تقودها القوانين والمناهج المتطورة في العلم. فتأكيد المصداقية هنا ليست غيبية وليس لها أيّ مصدر مقدس، بل تعتمد على التجارب والملاحظات والأساليب المتطوّرة في منهجية البحث للتوصل للنتائج التي يتمّ اعتمادها علمياً.

جائحة كورونا وسر الشكر الإلهي

ماريًا قباره

الخرافة الدينيّة بين الداء والدواء

إنّ طغيان المعتقدات الشعبيّة في التعاطي مع انتشار فايروس كورونا ليس صادماً، فهناك الكثير ممن يتعلّق، للآن، بعبادات أشبه بالوثنيّة القديمة وبخرافات متوارثة لا علاقة لها بأصول المسيحيّة وعقائدها. فالناس عامّة، وفي مجتمعاتنا الشرقيّة خاصّة، تتجه دوماً إلى ما هو عاطفي وبشريّ على حساب العقلانيّ والعقائديّ والمجرّد. ويتمسّكون بالمعتقدات الشعبيّة على حساب الجوهر والإيمان الحقيقيّ.

بالنسبة لكثير من المؤمنين، فإنّ العبادة والطقوس والاحتفالات الدينيّة هي أجوبة شافية على الكثير من الأسئلة الوجوديّة عندهم، وخاصّة، في الأزمنة الصعبة كالحروب والأوبئة والكوارث والأمراض وكلّ مظهر يصعب تفسيره. فيلجؤون، على سبيل المثال، إلى شرب المياه المقدّسة والمسح بزيت الزيتون أو تقبيل الجدران وتراب القدّيسين أو استعمال رموز توضع داخل البيت أو خارجه لطرد الأمراض والأوبئة، كلّ هذا إرضاءً لحاجة نفسيّة عميقة لديهم. فهم يرون أنّ التفسير العقلانيّ زعزعة لإيمانهم في مقابل ما هو مواهبيّ خارق. هذا لا يعني أنّ المظاهر التّقوية الشعبيّة غبيّة لا تُجدي نفعاً، لكن هذا يعود إلى أنّ المراجع الدينية لا تثبت فعاليتها. لا يمكن تحويل الإيمان إلى وهم. فكم من جماعة أو مدينة نادى بعضهم بأنّ «الله حاميها» كانت نتيجتها السقوط أو الخراب. وليس كلّ تدخل إلهيّ في مسار التاريخ سنجد مثيله تلقائياً اليوم. فالتقوى الدينيّة مصابة بداء الجهل الروحيّ والرياء، ولن تكون دواء شافياً لأمراض الجسد بتاتاً.

نظر العديد من المؤمنين المتدَينين إلى جائحة كورونا على أنّها اختبار، وكانوا محقّين في ذلك. فهي ليست اختباراً للمعتقدات فقط، بل لمنطقها، فيما إذا كانت تتصرف بعقلانية أو بضدّها، أو إذا كانت تساعد على إنقاذ الأرواح، أم بتعريضها لهذا الوباء الخبيث.

ويصبح هذا الإيمان الأعمى أكثر ظلاميةً وقبحاً عندما يبدأ في تبنّي نظريات المؤامرة الإلهيّة، وفكرة أنّ الله يجرّب الناس بهذا الوباء لمعاقبة مجموعة معينة منهم. وتستمر مثل هذه المواقف غير العقلانية في تكدير صفو المشهد الدينيّ، في حين أنّ الإيمان مصدر للأمل والإلهام، لا كبديلٍ للعقل، وإنّما كمكمّل له. يُخطئ من يظنّ أنّ الكنيسة ستنهار لمجرّد اتخاذ إجراءات تُعنى بسلامة المجتمع الصحيّة.

جائحة كورونا وسرّ الشكر الإلهي

كثيراً ما يخلط الناس بين العقائد الثابتة والطقوس المتغيرة. فالإيمان لا خلاف عليه، أمّا الطقس والممارسة فيخضعان لاحتياج الكنيسة لكلّ زمان ومكان.

وقد تجلّت الإشكالية الحاضرة لجائحة كورونا في كنيستنا الأرثوذكسيّة تجاه الإفخارستيا- أو سرّ الشكر الإلهي، ليس بوصفها متلبسة بالطقوس من عدمها، ولكن بوصفها ترتبط ارتباطاً تامّاً بفهم الإكليروس والمؤمنين للتحوّل الأسراريّ لمادتيّ الخبز والخمر إلى جسد يسوع المسيح ودمه الكريمَين، وبالإيمان المتجذر من هذا الفهم، وبإدراك رسم الربّ من هذا السرّ المقدّس.

يقدّم الكاهن في سرّ الشكر الإلهي، ظاهرياً، الخبز والخمر وتسمع كلمات الربّ: «خذوا كلوا هذا هو جسدي، الذي يكسر من أجلكم لمغفرة الخطايا. اشربوا منّه كلكم، هذا هو دمي الذي للعهد الجديد، الذي يهرق عنكم وعن كثيرين لمغفرة الخطايا». وهذه الفائدة الروحيّة الكبرى تتجدّد لنا كلّما احتفلنا بإقامة سرّ العشاء السريّ: «اصنعوا هذا لذكري» (لوقا ٢٢ : ١٩). ويضمن لنا هذا العشاء المقدّس أنّ جسد المسيح ذاته بُذل عنا، وأنّ دمه سُفك لمغفرة خطايانا.

هذا التحوّل الأسراريّ لا يبدّل من الخواص الفيزيائيّة للخبز والخمر، ولا يغيّر من طبيعة الأواني والأدوات المستخدمة في إقامة الأسرار. الإيمان بالتحوّل الأسراريّ وقدسية الجسد والدمّ لا يتجاوز التدبير الإلهيّ للثبات في يسوع المسيح ومغفرة الخطايا، ولا يعطّل قوانين الله. «منْ يأكل جسدي ويشرَب دمِي يثبُت فيَّ وأنَا فيه» (يوحنا٦:٥٦).

المعجزة الحقيقيّة التي ينتظرها الإكليروس وغلاة الذين يعتقدون أنّهم وحدهم «المؤمنون»- بأل التعريف- حين يتناولون، ظانين أنّ هذا الإيمان يجنّبهم المرض والأذى، وهذا لا يحدث. فيسوع الحاضر على المائدة المقدّسة جسداً حقيقياً ودماً حقيقياً «جسديّ مأكلٌ حقٌّ ودميّ مشربٌ حقٌّ» (يوحنا٦:٥١-٥٨) لن يوقف الأمراض، لأنّه لا يغيّر من طبيعة وخواص المواد والأدوات، ولا يمكن أن يتصادم مع قانون الطبيعة الذي خلقه يسوع هو ذاته. ليس هناك سحرٌ كما يتمناه المؤمن كلّما أقبل إلى المناولة. فالجسد والدمّ للثبات بيسوع المسيح، ولمغفرة الخطايا.

تاريخ الملعقة المقدسة في التقليد الكنسيّ

من أهم النقاط التي يعلّمنا إيّاها الآباء القدّيسون هي أنّ فعالية السرّ المقدّس لا تتوقف على قوّة أو ضعف الإيمان أو حتّى على صلاح خادم السرّ؛ أي الكاهن. لذا ينزعج البعض من أي كلام حول أيّ تغيير في الصلوات أو الطقس الكنسيّ كأنّه أمر إلهيّ لا يمكن إعادة ترتيبه أو تغييره، وهكذا تفكير لم تعرفه الكنيسة على مرّ العصور.

ولو عدنا قليلاً إلى زمن ما قبل الالتزام بالملعقة المشتركة الواحدة، سنجد أن المناولة كانت تتمّ بواسطة الكأس ذاتها، أو الوعاء الحاوي

لعصير الكرمة، وكان يقدّم للناس وكلّ واحد يأخذ لنفسه بنفسه. والملعقة حديثة العهد، والطقس المرتبط بها هو من تدبير بشريّ، وكلّ تدبير وترتيبٍ بشريّ يمكن تطويره أو تعديله بحسب الحاجة الرعائيّة لتراث الشعب. فلماذا جعلنا الملعقة «كأداة ثانوية» قضية وكأنّها عقيدة إلهية؟

نقرأ في المجمع المسكوني السادس – مجمع «ترولو» الذي عُقد في القسطنطينية ٦٨٠ م. أنّه مُنع استخدام أية أداة معدنيّة لتوزيع المناولة على المؤمنين، وكلّ مؤمن يأخذ الجسد والدم بيديه. إلاّ أنّ القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم رئيس أساقفة القسطنطينية ٣٤٧-٤٠٧ م. كان وبدافع إيمانيّ رعويّ قد بدأ بالمناولة عن طريق الملعقة خوفاً من سرقة الناس لجسد الربّ وتدنيسه أو استعماله في السِحر. وأخذت هذه الممارسة تنتشر ببطء شديد جداً حتى عممّت إلى أيامنا هذه.

استهتر كاهن في استخدام ماء عطن مخزّن لمدّة طويلة في غسل الأواني الكنسية في نهاية القداس والشرب منه فمات مسموماً، واستطاعوا إسعاف الشمامسة الأربعة المشاركين معه بأعجوبة.

في المجمع المسكوني الخامس- السادس، أُصدر قانون يوجب فيه في زمن الأوبئة بتعقيم الأدوات الكنسيّة بالخلّ بعد مناولة المرضى. فهل كان المؤمنون ضعيفو الإيمان في ذلك الوقت؟ أم توقفَ عمل الروح القدس اليوم في كنيسته المقدّسة لنتخشب بجمود أمام تبديلٍ أو تغييرٍ يزيل مخاوف المؤمنين؟ لماذا تُرفض الدعوات في إعادة النظر لبعض استخدامات يمكن تغييرها في الكنيسة الجامعة اليوم؟

إنّ دعوة المغامرين والمستهترين للمؤمنين للمناولة في زمن كورونا بقولهم أنّ «الملعقة» لا يمكن أن يسمح الله بواسطتها بانتقال مرضٍ أو وباء هو منطق غيبيّ غير مسؤول لا يرضى عنه الله نفسه البتّة. على حساب الإيمان بالتحوّل الأسراريّ لن يحمي الله المستهترين.

ومن يحاجج بأنّ «الطقس لا يتغيّر» نعود معه إلى الكنيسة الأولى وكيف استلمت الكنيسة من الرسل طقس العشاء كمائدة «أغابي»- محبة. والتي تبدأ بسرّ «كسر الخبز»، وتنتهي بسرّ «كأس البركة»، ويتخللّهما عشاء من كافة الأطعمة والشراب وفيها يشترك جميع الحاضرين». فإذا كان هذا من تراث الآباء فأين هو من الطقس اليوم؟ إنّ التعنت بالطقس على نحوه الراهن بالقول: «إنّ طقوس الكنيسة اليوم هي ما تسلمناها من تقليد الكنيسة الأولى ولا يمكن تغييرها»، هو تعنت باهت مغلوط غير صحيح ولا صلة له بمسار تاريخ الكنيسة. فالطقسُ لا يقوم بوصفه حدّاً على الاحتراز الطبيّ السليم. فالطقس يقتل أمّا الروح فيُحييّ.

الكنيسة الأرثوذكسيّة الجامعة في زمن كورونا

بالرغم من أنّ مسيحيّتنا ليست جامدة وطقوسنا لا تُستمد من أفكارٍ بل من إرشاد الروح القدس العامل فينا، وليسَ ثمة موانع من استخدام نتاجات العقل والتطوّر مترافقاً مع العلوم الطبيّة لتسيير أمور الكنيسة دون المساس بأساس العقيدة والإيمان. إلاّ أنّ جائحة كورونا أظهرت سلبيات كثيرة في قدرة الكنيسة الأرثوذكسيّة الجامعة على إدارة هذه الأزمة بشكل يتأقلم مع التحديّات الداخليّة في الرعاية وعيش تعاليم الكنيسة الحقيقيّة بعيداً عن كهف التقليدية المتخشبة.

فمسألة تغيير أداة المناولة «الملعقة المشتركة» في الكنيسة الأرثوذكسيّة الجامعة باتت قضية ضرورية وليست ترفاً. وقد طرح الكثير من الباحثين واللاهوتيين والاختصاصيين هذه المسألة بجديّة كبيرة في غياب واضح للكنيسة بمجمعها المقدّس وقياداتها، وتردّدها المتخاذل حول فتح باب الحوار هذا والنقاش فيه لاتخاذ خطوات واجبة تجاه هذه المسألة التي ليست لها علاقة بأيّ تغيير في جوهر العقيدة أو الإيمان. فهل أُخذت بعين الاعتبار كلّ المقاربات الجديّة والمتقدّمة التي تعلّقت بأزمة كورونا وتداعياتها في الكنيسة من قبل السّلطة في الكنيسة الأرثوذكسيّة الجامعة، أم أنّها قوبلت بالتجاهل والتخوين؟ وهل لجأت الكنيسة الأرثوذكسيّة إلى التاريخ والتدبير لإيجاد حلاً استثنائياً لطريقة المناولة تفيد المشكلة الاجتماعية والرعائية الناشئة في زمن كورنا؟

إنّ النصوص التي وصلتنا عبر التاريخ لم تكن نصوص جامدة أو حرفية استقرت عبر الزمن، بل كانت سلسلة خبراتٍ شهدت تحديّاتٍ وتحوّلات وتغييرات وحذف وتعديل.

نعم، لقد بادرت الكنيسة واتخذت قرارًا شجاعًا بإغلاق أبوابها وتعليق كلّ الاحتفالات الدينية خلال أسبوع الآلام، لكنّها للآن لم تتخذ من الأزمة فرصّة واجبة ضرورية لتطوير نقاشٍ فعال بين أعضاء المجمع وأساقفته وكلّ المتعلمين والاختصاصيّين لإدارة هذا الأمر ودراسة بعض الطقوس الدينيّة الموروثة.

جائحة كورونا أظهرت ضعف بعض خدّام وكهنة الكنيسة في التعاطي مع علوم العصر وتحدّياته، وعدم مقدرتهم على أخذ المبادرات وإطلاق المواقف المسؤولة، أو في المبادرة بجديّة لاستنباط شكل آخر للمناولة إلى جانب الممارسة التقليديّة، بما يتناسب مع حاجة المؤمنين بالتعامل مع الأزمة الحالية.

قدّمت لنا خبرة جائحة الكورونا فرصة أخرى يجب ألاّ تهدر. فرصةٌ تدعونا للانتباه إلى عمق التشققات في جسد الكنيسة، والتي تحتاج إلى مساهمة جموع المؤمنين لرأبها. فرصةٌ تتطلب تكيّفاً وجهداً وعملاً وليسَ تحجراً وصنمية.

فالترابط بين الإيمان والعلم لا يجب إهماله، وإنّما تسخيره لما فيه خير الإنسان، باعتبارهما متكاملان يسهمان في زيادة الوعي ويشدّدان على ضرورة إعمال العقل.